

## الملاحة عند القدماء

نحن في زمن انتقلت فيه البحار من السفن تشق العباب لا تهرب الامواج تلطمها ولا تخشى الرياح الموج تعصف بها . يقف واحدنا على شاطئ البحر حائراً مذهولاً مما يرى . فلاماً تسير فوق الماء مدججة بالسلاح الضخم اجبة للقتال وازهاياً للعدو . واهراء واسعة الجوف تزدحم فيها ما انتجت الارض او صناعة الانسان تجري بها من سوق الى سوق تتدفق ونرى ثم تقول في انفسنا كيف نشأت هاتيك البواخر الحربية وهذه السفن التجارية بل كيف فتق للانسان عقله لتجوير البحر العجاج واتخاذهُ مسرحاً لسفائه وسبيلاً يجري فيه الى غرضه تلك مباحث لا يتنى الغليل منها الا يبذل نفسه فخصياً عن علم الملاحة فنقول -

الملاحة في العربية صفة الملاح وهي تؤدي معنى الكلمة الاخرى Navigation ويراد بها بالعربية ايضاً كلمة الابحار بمعنى سفر البحر وفي الاصطلاح علم يراد به تسيير السفن في البحار

ولقد نشأ هذا العلم ضعيفاً وتدرج في الارتفاع حتى ادرك هذا العهد موضعه السامي من الاتقان ولم يبق على الخدس والتخمين بل على الحقائق التي ادى اليها الاتقان والتجرب المتكررة مرة بعد اخرى . ومن غريب امره ان الذين جربوا وحفظت نتائج اعمالهم المصيبة وهارت قواعد الفن لم يكن معظمهم من الفلاسفة او العلماء ولا من القارئ الكاتبين بل من الاسبين الذين لا اهدوا الى ركوب متن الماء صاروا يعملون بما تفقوا لم عقولهم من الاساليب التي يفتنونها تبلغ بهم الغرض فكانوا اذا وجدوا من موضوعاتهم شيئاً عمموا به واتبعوه وخلفوه لمن يجي بعدهم من ارباب فنهم وان وجدوا ما استعملوه قاصراً عن غرضهم نبذوه واتخذوا عنه بديلاً فجموع هذه التجارب هو اصل علم الملاحة قبل ان اخذته العقول وشهدته العلوم . ويوضح القول ان قواعد بنات الفلسفة والجهل المطبق وهذا من الغرابة يمكن

اما مشاركة الفلاسفة فلم تكن الا لاحكام الفن وجعل قواعد قائمة على اسس الحقائق العلمية وامم القائلين به شأناً اولئك الذين كانوا على علم باحوال البحر ولم مشاركة في علم الفلك والآلات

ويبتدى تاريخ الملاحة منذ أقدم العصور وأكثرها إيغالا في عصر الظلمات أيام كان الناس في مجتمعاتهم الأولى وليس لأخبارهم ديوان يرجع إليه ولكننا نتابع سائر الباحثين في أحوال الفطريين بأن نصرب مثلهم في أودية الخيال مستعينين بالتمثيل - فنرى القوم الذين يعترضهم في رحلاتهم أو يجاورهم في منازلهم نهرا لا يستطيعون اجتيازها سباحة يضطرون إلى التحميل في ركوبه بوضع أخشاب فيه تطفر عليه فيركبونها أرماتا وإذا كانت المسافة بين العدوتين طويلة تذرعوها إلى نيل غرضهم بقطع الأشجار وحفر سورها الضخمة بالادوات التي يستعملونها أو بالحرق كما يشاهد حتى الآن بين الفطريين في أفريقيا - ولطعم قبل اعتمادهم إلى هذا كانوا قد رأوا شجرة نخرة فاستعملوها ووثق لهم بمطهرهم - إلا أن صناعتهم الفطرية لم تكن لتعد لهم من مثل هذا الطرز فلو لم تسع أكثر من رجل أو رجلين - ثم إن النازلين سواحل البحر يضطرون إلى ركوبه ومنهم على الأكثر نشأت المعارف الأولى التي اعتمدها الملاحون لأن البحر على سعة يسهل السبل متى اعتادها المسافرون يرونها مقربا للمسافات - حينئذ على الصلة التجارية - فلا عروا أنت يغري سكان سواحلها بالتقاضي وقد عوضهم عما تحملوه من المشاق فيه كثيرا من الخير بما فتح لهم من أبواب التجارة وما اعان على اتصال الناس وتبادلهم المنافع والفوائد - حتى إن القارئ يستطيع أن يعرف مقام كل عصر من العصور الماضية من النظر في حال ملاحه

وليس في التاريخ نيا صريح عن الزمن الذي بدأت فيه الملاحة ولا عن الامة الأولى التي تسمى لها هذا الفخر غير أن بعض المؤرخين يزعمون أن فينيقية أحزرت نصب السبق في هذا المضمار بحيث أن الفينيقة الأولى التي غزت العباب كانت منها إلا أنا نخشى أن تكون هذه الرواية يونانية المصدر وقد أوردتها روايتها اثر تأثرهم لعظمة فينيقية في البحر

ولا نعلم كيف بدأ الفينيقيون بناء سفنهم بمعنى أنا لمنا على يتقن من حقيقة حاطم أيام عرفوا باسمهم ويقوتهم البحرية - ولكنهم على رأي جلة الباحثين لا يكونوا فطريين حين نزلوا الضور الشامية وأن صح القول فيحيثهم إليها من سواحل البحر المندي فالمرجح أنهم كانوا على علم ضئيل بالملاحة وكيف كان الحال فإن فينيقية كانت مظهر براعتهم في هذا الفن ومضمار السابق همهم في تربيته والارتفاع به وللظهور الأول في شهيد العالم المتحدن كقوتهم بحرية ذات عمل مذكور

وقد اتصل بنا من أبحاث العلماء أن اقتراب الثور الفينيقة بعضها من بعض بحرا ووعورة بعض الطرق يرا اضطرتهم إلى ركوب البحر

على انهم ما عتقوا ابداً اشده سائدم وصاروا يسافرون الى قبرص ومصر وكينكية ويادلون اهلها التجارة ولم يمتنع عليهم الزمن الطويل حتى استطرقوا الى كل سواحل البحر المتوسط بل تجاوزوه الى البحر الاسود وما وراء اعمدة هرقل وبلغوا على قول الخزر البريطانية وتلك السفن المكشوفة التي قامت الامواج تغلبتها اتصل بنا رسمها على النقود الفينيقية القديمة وهي في شكلها اشبه شيء بالسلك الكبير

وقد نقل العلامة رولسون في كتابه الحديث عن تاريخ فينيقية ان هذه السفن كانت تبني من خشب الشربين او الارز فيشدون الواحها الى بعضها شداً غير محكم ويطنونها من الداخل بالقار والدم ما اتصل اليها رسمة منها يدل على ان تسييرها كانت اما تجديفياً او بالشرع . ويطلب في عدد الجذائين في السفن القديمة ان يكون عشرة او اثني عشر ونكسهم ازدادوا بمرور الايام وتحسين صناعة السفن حتى صاروا من الثلاثين الى الخمسين رجلاً وكانوا يجلسون في اول امرم صينين متقابلين كما يجلس بحارة القوارب لهذه المهنة ويحركون الجاذيف وهي مشدودة الى جانب السفينة ويجعلون وبجرهم ازاء مؤخرها فان هبت ريح موافقة رفعوا شراعاً على سارية مرتفعة من وسط السفينة مشدودة بالخبال وكان الشراع يدار على حسب رغبة الربان

وما نسب الى الفينيقين اختراعهم ضرباً من السفن بكثرت في عدد الجذائين ويقال له Birames اي مزدوج التجديف وقد رسم شكل هذه السفن على الآثار الاشورية منذ عصر سنخاريب في اوائل القرن الثامن قبل المسيح والمرجح ان استعمالها كان شائعاً قبل ذلك العهد بائسنة طوال . والظاهر من شكلها المرسوم انها كانت في اول امرها قليلة الارتفاع ثم زيد عليها بناء ظهر لها فاصبحت ذات جوف يجلس فيه الجذائون على مرتفعين احدها اعلى من الآخر ويمتلون في التجديف من تقرب قعر الجاذيف منها الى البحر شيئاً شيئاً ومن العجيب ان تلك السفن الضعيفة الاولى كانت ثقادي الانواء والعوامف وتغالب الامواج وتصل الى ميناء فصدتها سائلة لا سبيل لها وان الملاحة يومئذ كانت بقية النشأة الاولى ايام كان البحارة لا يعدون عن البر كثيراً . وهذا التمسق يعتبر في الاجمار عفوفاً بالاخطار لان البحار البارح لا يخشى من الامواج اذا هي اقبلت كالخبال ولا من الرياح الهوج اذا هي عصفت كهزيم الردد اذا كان مركبه في ظهر البحر الواسع يتصرف باذاتة وتحويله من نقطة الى اخرى بل حريه ولكنه يخشى الاقتراب من البر والتضييق على مركبه في مجال الحراك خوفاً من نشربه على الصخر او الرمل . ألا ترى من الدرس كيف تحمطت منها المئات

عند جبر. ثورس ومثيسيا وازويا لأنها كانت تقرب من البر ومثلها لغيت بوزارج فينيقية وهي قد خرجت من مرساه مشحونة بالكافة ومندججة بالسلاح فلم يبق منها إلا القليل ولقد مر على الافلام حين من الدهر كانت فيه تسخر لتدوين اساطير الاولين فحار فيها الباب قرائها اذ يرونها من الترهات التي لا فاعار جانب الثقة وهي مع ذلك واردة في معرض الامر الواقعي من ذلك انهم كانوا يحكون عن غزوة الارغنون وبيالغ رواتهم في تدوينها وكلها يراها بقدة العصر من الاساطير الموضوعة الا ان من الحكايات ما كان صادراً عن حقيقة موثت عليها الخرافة ونسجتها على سنوالمما فكادت تذهب الحقيقة الضئيلة ضياعاً بين هاتيك الترهات الخوكة

فالابيات الحديثة كشفت التناع عن حقيقة غزوة الارغنون بانها اشارة لما كان يلاقي بحارة اليونان لاول عيديم من الجهد والعناء في التمرل الى شواطئ البحر الاسود ولكن ما عثم ان تقضى زمن الخرافة عندم وجاء الدور التاريخي للاحتهم ثم برزت سفنهم تناخر اساطيرهم الفينيقية في اعالمهم واسفارهم حتى غلبهم في ما جاورهم بحيث اضطرو النينقيون ان يتركوا لم البحار التي تجاورهم وان يضربوا في عرض البحر توملاً لمراضع اخرى ثم عززت بعد ذلك ملاحه المصريين على قلة ثم ملاحه فرطاجنة والاتروسكان اما انصريون فان النيل كان احسن مدرسة لتعليم فن الملاحة فيه ولكنهم لم يقنصروا على تسيير سفنهم في مائده بل سبروا بعضها في مياه البحر المتوسط وفي عياب البحر الاحمر حتى خليج العرب

ويهم من هميتهم ان احد فراعنتهم فتح ترعة من النيل الى السويس كانت السفن تسيرونها لاستبضاع النحاس من القطر العربي

ونالت التجارة المصرية مقاماً لكنها لم تدان الفينيقية ولا اليونانية على ان الدول المصرية كانت على اتم وفاق مع الفينيقية تسمح في بالتيام في بلاده التجارة وبالتردد عليها لحمل نتاج ارضها الى البلاد البعيدة التي نتاجها فادى ذلك الاتاق الى موائفة اخرى ذهب بها الاسطولان الفينيقي والمصري في اسفار تامة اليها الطواف بحراً حول افريقيا والنضل في هذا الطواف يعود على الملاحة الفينيقية اكثر منه على المصرية لان القرعون نجحوا استخدم البحارة من الفينيقية فسارت السفن من احدى مرافئ البحر الاحمر محاذية للبر عند باب المندب ثم حذاء السواحل الشرقية من افريقيا متحركة عياب البحر الهندي متجهة جنوباً حتى اجازت بلاد الصومال فزنجبار فموزامبيك فبلاد الزولو ومنها طرقت رأس الرجاء واذ بلغت

اقصى الطرف الجنوبي عادت على محاذاة النهر الغربي مارة بأهناك من الاقطار حتى استندرت أفريقيًا وبلغت بونافاز طارق وسنة دخلت البحر المتوسط وجعلت تدنو بومًا ليرمًا من المرافئ المصرية فبلغتها بالامن والسلام وكانت مدة غيابها في الفرع نحوًا من ثلاث سنوات قضتها بالتجارة راكبين متن البحر وكما اعوزهم الزاد كانوا ينزلون البر ويعالجون اليد قطعة من الارض بالحرث والزرع فيقيمون ثمت حتى يفرز زرعهم وينضح فيصدهه ويحصره في اهراء سفنهم زادًا ثم

وكأن في بهم لم يكونوا يتصدون اتمام طوائفهم سريعًا وإنما قبلوا فيه ليأتوا على اخرو آتئين فكانوا يسرون حذاء الساحل ما طابت لهم الريح وصفا الجو وسكن البحر فإذا لم يجدوا من الاحداث الجوية عونًا اولقوها واقفة لم مرفق العدو لجأوا الى البر حتى تكسر حثتها ويؤمن جانبها على انهم لم يكونوا يحشون من الالهلين صبرًا ولو كانوا من اشد البرابرة ترحتًا لان مجيئهم الى جوارهم لم يكن إلا لاكتشاف ومعبأ اشياء من السلع التجارية بما يرضون عليها ولا خفاء ان هذه الرواية نقلها المؤرخ هيرودوتس وقال فيها لكن التجار يقولون انهم بعد سفرهم حول افريقيا بزمن قصير صارت الشمس تطلع عليهم من بعارضهم ثم صرح بأنه نقل الخبر عن قائليه وهو لا يصدق مياسرة الشمس ثم

ومن العجب ان بعض القدمة حسبوا خبر الطواف مكذبًا ولم يتنبوا الى ما اتبه اليه المؤرخون المدققون وفي صدرهم كروت وروكسون من ان خبر طلوع الشمس عن يدارم هو الدليل البادع الذي يؤيد خبرهم لان اليونان في عصر نيخرو ومثلهم المصريين والفينيقيون لم يكونوا يعرفون عن الشمس حقائق حالها من الشروق والاضلال والغروب واذا كان من نوابغ القوم من يعرف حقيقة من هذه الحقائق فان عامة الناس لم يكونوا يعرفون شيئًا غير ما يشاهدونه وهذا يدل على ان التجارة لم يضعوا الخبر من عند انفسهم بل حكموا بما وقع لهم وكما ان الفينيقيين كانوا في طليعة بحارة العالم ولم سبق على معاصريهم ومنهم اخذ اليونان فن الملاحة وبهم استعان المصريون في بناء سفنهم وتسييرها وتديورها وهكذا لما جاء الدور الروماني اخذت تلك الدولة نصيبها من الملاحة عن الانرومكسان بعد اذ اضطرت الى تعزيز تجارتها لماواة قرطاجنة بنت فيليقية ذات القوة الفخمة في البر والبحر ولم تكن مناواة رومية لقرطاجنة إلا معالمة لها على امتلاك ناصية التجارة البحرية التي ادركت على نظيرتها اخلاف الثروة كما ادركتها من قبل على امها فينيقية

ولم تكن معدات الملاحة حتى يومئذ قد ارتقت عن اطلالة الاولى الا قليلاً قصارت السفن

من ذوات الثلاث طبقات واسميت البرارج المعدة منها لغرب ثقل الجند وسلاحهم واذا وقع انقلاب بني الجندفون على عملهم واشتغل المكاء بالانتال والربان يدور السفينة يعرفون ومن السفن التي كانت تنساب البحار يومئذ من القرمان اي لصوص البحر وكانت تجهز بتسل جهاز السفن التجارية حتى لا تفرق عنها وقد يفرها كثيرون من ربانية السفن الاخرى ولذلك صارت السفن كما دنت من بعضها نساءل عن شروطها فان كانت تجارية سار كل منها في طريقه وان كانت نرمانية حمل بعضها على بعض واشتبك القتال والغنية للغانر مررت العصور لكات اوريا في العصور المسيحية الاولى بمالك صغيرة بعضها في جاهليتها والبعض في زمن الانقلاب فلما هنت العزة الرومانية لم يكن من ممالك الاسلام الا اول ميل لركوب البحر الا قليلا في المياه الجارية لئلا يكهم واما سكان شمالي اوريا كالنورمان والندركيين فكانوا يركبون سفنهم ويشنون بها الغارات على السواحل القريبة فيلبون وينهبون . ولذلك لم يكن لاختبار اولئك البحارة يد في اصلاح فن الملاحة الا ان بعض الايطاليين من اهل جنوى والبندقية كان لهم منذ عهد بعيد قدم راسخة في التجارة البحرية وساعد شديد في الحرب بحيث كانوا لا يقارون عن انقاف بنا سفنهم واعدادها لا مقام مذادم تسمى لم بذلك ادخال اصلاحات حجة في تحكيم الشراع وضبطو وكانهم بما توفروا لا يجادو من الاصلاح قدموا السبل لنبوغ جماعة منهم بدشون العالم باعمالهم البحرية وبتناج ملاحتهم الغريب

وما يذكر ان البحارة الاقدمين واهمهم الفينيقيون لم يكونوا يعرفون من فن الملاحة الا زورا قليلا يتمكنون به من السفر من قير الى آخر على معاذة البر على انهم ما عتروا ان ضاروا بعدون عن البر ويستسلمون لمك الامواج فيبالونها في مضارها ولكن على مسافات غير بعيدة المدى كما هي الحال في بعد جزائر المتوسط عن البر وعن بعضها . فهذا الاعتماد عن البر لا يتم الحكم فيه الا بضبط تلك الابعاد ولذلك ظن بعض الباحثين ان الفينيقيين كانوا على علم باصول الحساب وكانهم اشتدوا رواية سترابو القائل ان الصيدونيين خصوصا كانوا يعرفون عملي التلاك وسلك الالبحر لانهما ضروريان لمعرفة مير السفن وعلى الخصوص ليلا ويرى غيره ان البحارة كانوا يومئذ يسرون ليلا مستهدين بنجم القطب وانهم كانوا قد رسموا لاقدمهم ضربا من الخرائط وفيها المواضع وابعادها على معدل وضوء لانهم والا حفت اسفارهم بالخاطر

الا ان البحارة الاولين الذين كانوا يقصرون اسفارهم على الثغور القريبة من سواحل

المترسطة وبما كانوا اجبل من ان يراعوا قواعد الفلك والحساب او يستشروا خريظة او رسماً ولا غرابة في ذلك ونحن نرى كثيرين من بحارة السر بين يضارعونهم جهلاً واقتداراً على تسيير قواربهم بين الشغور القريبة على قوعد تلتصقها من اسلافهم او تعلموها بالتراوله اما الذين تعذر حدود المترسطة فانهم لقرا ما لم يعرفوا في بياهوواذ تعرفوا بالمد والجزر وعلاقتها بالشمس والقمر ولم يكونوا يخطئون الا في ظنهم ان مدة الربيع يكون على اشدته في الانقلاب الصيفي مع انه يكون كذلك في شهر ديسمبر حيث تكون الشمس اقرب الى الارض منها في الفصول الاخرى

وكان بحارة العصور القديمة يتوارثون طرقهم ويأخذون بعضهم عن بعضهم وكلهم حتى العصور الوسطى لم يتفق لم الخروج عن الملاحه عن البسيط الساذج . مع انه قيل ان الصينيين كانوا منذ اقدم العصور يستخدمون الحك في سفنهم نقله فلاثير جيوجا النابولي الى بلاد سنة ١٣٠٢ وقال الدكتور جلبرت ان الذي نقل الحك من الصين الى اوريا هو الرحالة المشهور ماركو بولو سنة ١٢٦٠ . واثره فيهم عن ممولات قوله انه ورد في كتاب صيني من مؤلفات النصف الاول من القرن الثاني انه قبل ذلك بسبعة سنة اتي الصين سفراء من قبل تونكين وكوشين تشين فلما ارادوا الانصراف اذكرهم على عجالات مخفطة لتسيرهم الى بلادهم من غير ان يضاروا الطريق وان بعد ذلك الوقت يخفقون استعمل الصينيون في سفنهم المنطيس متجهين نحو الجنوب استهداء به في اسفارهم البحرية الا ان بعض النقده لم يجزوا معرفة البلاد التي توقفت لاجهاد الحك . واخرون يسمون اصله للصينيين وانهم كانوا يضعون قطعة من الحديد المنط على قطعة من النلين فكان فلاثير جيوجا رأى ذلك فاعمل التكرة واخترع الايرة المنطية ولذلك اثبت له بعض المؤرخين فضل اختراعها لانقلها عن الصينيين . غير ان هذا القول مردود بما اثر الاسقف جاك ده تيري مطران صكا من وجود الحك في سوريا سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢١٥ وكان الصليبيين تعلموه منها الى فرنسا لانه وجد فيها سنة ١٢٥٠ وفي نروج قبل سنة ١٢٦٦

واي كان مخترع الحك لله الفضل على الملاحه لان باستعماله انفتحت سبل السفن وتساوى في سيرها الليل والنهار قرب البر او ابعد وبه استعان كبار الملاحين على ارتياد البحار المجهولة واكتشاف ما وراءها وبه بدء زمن الملاحه الحديثة الذي غير اوضاع الفن القديم ونقله من كونه فن تجريبه وامتحان الى فن باسول وقواعد واستخدام الحك في السفن الاوربية جاء في زمن كان قريباً من عصر الانقلاب الذي

به تغيرت الشؤون وانضقت العقول من عقابها ورجح للاجتهاد باب الكسب . فكان نجاح  
 الملاحة سلسة اول حينها استعمال الخلك فاندفع البحارة لارتداد البحار المجهولة فاكتشف  
 البلدان من العالم الجديد فتردد التجيرين والمهاجرين اليها فالتساع دائرة الملاحة واتباه التوابع  
 الي تحيينها عملاً وعتماً كل هذا رقي بها درجة فدرجة حتى ان تلك القوارب المكتسوفة  
 التي يكاد لا يقوى نوتيبها على مغارة البر الا خطوط معدودة صارت امهات هذه البوارج  
 المدرعات والطرادات اذ الفلات والبواخر على تنوع اشكالها

ج . ي

### تعريب الاسماء الاجنبية<sup>(١)</sup>

ايها السادة

يتبنا التاريخ ان اللغة العربية كانت لآخر القرن الثاني عشر الهجري قد وصلت الى منتهى  
 الضعة وكادت تصبح اثرأ دارساً ولولا رجلان نكرا في احيائها ووجدنا من خيرة الاعوان  
 من كان شعارهم الاخلاص والجد لكننا اليوم على ما كان عليه سلفنا في اواخر ذلك العهد  
 اما اولها فمحمد علي باشا مؤسس الامرة العثمانية زادها الله تشريفاً وتكريماً فانه  
 وجد المرحوم رفاة بك وتلاميذه بعد ان زوج بيوم في مغمار الحياة فاروا شوطاً بعيداً  
 ووضعا الحجر الاول في نهضة اللغة كثيراً وترجموا شيئاً كثيراً ابقته لنا الايام دليلاً على  
 اخلاصهم ثم على مقدرتهم واستعدادهم لم يتركوا شيئاً من الفنون التي كنا مستضعفين فيها  
 الا كتبوا في ترجمتها او من عند انفسهم . واما الثاني فهو صاحب الدولة المخلص في خدمة  
 بلاد مصر مصطفى رياض باشا فانه وجد الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده وتلاميذه ورجال المزية  
 من تاليفي السوريين فقاموا بالنهضة الثانية وعهد الى الاستاذ المرحوم اصلاح الوقائع المصرية  
 والاشرف على ما يكتبة ارباب الموازين في محاوراتهم فكان ذلك منبهاً لهم ان يمتدوا  
 باصلاح ما يكتبون وتعلم ما يجهلون . ومن اكبر مساعد تلك النهضة الجرائد العربية على  
 اختلاف مذاهبها وشاربها فهي التي رفعت من قدرها وساعدت على رقيها بما كان  
 يذله اصحابها من الهمة في اختيار اللفظ والاسلوب سواء في ذلك فاضلهم وبغضولهم  
 اذا دبت الحياة في جسم فانها لا تثقف عند غاية فان صاحبها دائماً يرجو الكمال وهو  
 ابداً بعيد من الانظار كذلك نحن الآن فاننا في بدء نهضة ثالثة يأخذ بيدها وبشد ازرها

(١) خطبة تليق في نادي دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ يناير